أضعف الإيمان

جاء فى الحديث الشريف : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » .

ويحسب بعض مفسرى هذا الحديث ، أن الصفة هنا ترجع إلى الإيمان ، والواقع أن الموصوف هنا هو الوسيلة التى يتوسل بها الإيمان لا الإيمان نفسه . فالمؤمن الذى يغير المنكر بقلبه ، كالمؤمن الذى يغيره بيده سواء بسواء ، وإيمان الأول ، كإيمان الأخير لا يشوبهما ضعف ولا يلحقهما وهن . كلاهما مؤمن قوى نقى ، نهض بواجبه وأبرأ ذمته ، وعلى الله جزاؤهما وثوابهما .

والدليل على ما نقول أمران :

أولهما : القاعدة الشرعية الأساسية :

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ..

وثانيهما : الحديث الشريف : « أفضل الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق » .

فمن القاعدة الأولى نعلم جميعاً أن آيات القرآن الكريم توالت على أن الإنسان يحاسب على ترك الحسنة وإتيان السيئة فى حدود قدرته واستطاعته ، فمن تعدى عن فعل الخير ، أو واقع الشر عن عجز أو إكراه فلا إثم عليه ، والله غفور رحيم ، وهو حكم تقضى به البداهة ، ولذلك جاءت شريعة المسلمين لتؤيده ولتبنى أحكامها على أساس منه ، لأن الإسلام هو دين الفطرة ، أى دين البداهة السليمة التى لا تصادم منطقاً مستقيماً ، ولا تعارض مصلحة ظاهرة ، فالإسلام يرى أن تحميل الناس ما لا يطيقون وتكليفهم مالا يستطيعون ، أمر لا يصدر عن عاقل ، وشر

لاينجم عنه إلا شر أكبر منه . بل إن الإسلام لا يقنع بأن تدور أحكامه ، وأوامره ونواهيه مع الاستطاعة والقدرة إذ أنه لايدع بابًا من التخفيف أو التيسير إلا فتحه ، لحمل الناس على أحكامه ، عن طواعية واختيار ليتدرجوا هم أنفسهم إلى ما فيه المشقة حتى يبلغوا ، ما يسميه الإسلام « الإحسان » .

فقاعدة « لايكلف الله نفسًا إلا وسعها » كأصل أصيل فى التشريع والتقويم والهداية ، تأكدت بقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) [١] ، (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) [٢] ، (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج) [٣] .

وفى القرآن آيات تفصل هذا المبدأ ، وتطبقه ، فى سورة التوبة (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) فى هذه الآية لم يفضل المؤمنين المجاهدين على من عداهم من المؤمنين ، إلا أن يكون المؤمن الذى قعد عن الجهاد خاليًا من العجز ، قادراً على الجهاد ، ولذلك جاء وصف (غير أولى الضرر) تطبيقًا للقاعدة العامة وقد روت لنا سورة التوبة أيضًا حكاية هؤلاء المجاهدين الفقراء الذين أرادوا أن يجاهدوا ، ولكن حال دون هذه الإرادة أنهم لم يجدوا دابة تحملهم ، ولم يجد الرسول لهم ظهراً ، ينقلهم إلى ميدان القتال ، فخفف عنهم القرآن ، وأذهب عنهم الحزن ، وأكد لهم أن ثوابهم لن يضيع . قال الله تعالى (ولاعلى الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون) ، وفى سورة النحل : (من كفر بالله من

---

(١) سورة النحل .
(٢) سورة البقرة .
(٣) سورة التوبة .

بعد إيمانه — إلا من أكره — وقلبه مطمئن بالإيمان) . فحتى إعلان الكفر ، وهو أكبر الآثام ورأس المعاصى ، مغفور ما دام عن إكراه ، لاعن اقتناع مستقر ، ونفس مطمئنة إلى الكفر .

وإلى جانب هذا تأتى أحكام التيسير التى هى جزء من الشريعة لا يتجزأ منها ولاينفصل عنها ، تطبيقاً للحديث : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه » ومن هذه الآيات (يريد الله أن يخفف عنكم)[1] ، (وما جعل عليكم فى الدين من حرج)[2] ، (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)[3]

أما الحديث الشريف : « أفضل الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق» فعبارته قاطعة الدلالة على أن المقصود فى لغة الحديث النبوى بأفضل الإيمان وأدناه ، هو الأعمال التى يهدى إليها الإيمان ، فالحديث لايفاضل بين إيمان وإيمان ، وإنما بين عمل وعمل ، أو قول وعمل ، أو قول وقول ، وكلها مما يأمر به الإيمان أو يدعو إليه ويحبب فيه ويعين عليه ، ولكن هذه الأعمال فى ذاتها تتفاوت فضلا ونفعاً للناس ، كما تتفاضل من حيث إنها أسرع إلى تحقيق الخير ، وأفعل فى رد الشر .

ومن ثم يكون المؤمن الذى رأى منكراً فود أن يغيره بيده ، فعجز عجزاً حقيقياً ، ثم أراد أن يغيره بلسانه فاستحال ذلك أيضاً عليه ، فغيره بقلبه ، فى مثل إيمان الذى أراد أن يغير المنكر بيده فأعانه الله على ذلك ووفق إلى ما أراد . ولكن لابد أن يكون العجز حقيقياً لا مدعى به ، وأن تكون نية المؤمن ، قد انصرفت إلى رد الشر ، وفعل الخير ، إيماناً واحتساباً لا مراءاة للناس ، والتماساً للمعاذير ، وردءاً للتهمة . أما إذا كان الاعتذار بالاستحالة أو عدم الاستطاعة ، التماساً للنجاة ، وحرصاً

---

(١) سورة النساء .
(٢) سورة الحج .
(٣) سورة البقرة .

على الحياة فهذه صفة المنافقين ، لأن المؤمن الصادق لايدخل فى حسابه ولا يشغل باله رأى الناس ؛ فلايهمه أن يقولوا عنه أبلى فأحسن البلاء ، أو تقاعس ولم يؤد الأمانة ، لأنه — من وحى إيمانه — لايقنع بأقل من الكمال ، ولامتخل حتى يبذل النفس وكل المال . وفقهاء المسلمين يتفقون على أن إزالة الشر باليد واجبة ، ما لم تؤد إلى شر أكبر منها ، والأمر موكول إلى المؤمن ليستفتى قلبه ، فإن رأى إزالة المنكر باليد مستطاعة — ولو مع المشقة — وأنها لاتؤدى إلى شر أكبر منها أقدم ، فإن وفق فيها ونعمت ، وإلا فقد اجتهد وله أجر الاجتهاد . وقد جرى الناس على أن يقللوا من قدر إزالة المنكر بالقلب ، هذا إن فهموا معناها . والواقع أن إزالة المنكر بالقلب ، لاغنى عنها لمن أراد أن يزيل منكراً بيده أو بلسانه ، فاليد واللسان خادمان مطيعان للقلب ، يأتمران بأمره ، ويستمدان منه القوة وقد لايبلغان مبلغ قوته ، فليس كل مؤمن مقاتل يحسن استعمال السلاح ، وليس كل مؤمن قؤولا فصيحاً ، وإن كان المؤمن يجد فى إيمانه ، ما يعوض النقص فى الكفاية فى معالجة فنون الحياة ، وأساليب القتال ، وطرائق القول والأمانة . وإزالة المنكر بالقلب ، هى رفض لهذا المنكر ، ولعنه فى الليل والنهار والضيق به فى السكنة والحركة وانتظار الفرصة المواتية ، لإزالته باليد أو شجبه على الأقل باللسان ، والتنديد به ، ، والإهابة للعمل ضده . وما تغير فى أحوال الناس شىء إلى خير ، ومازال عن الناس شىء من الشر إلا إذا انعقدت قلوبهم على إزالته ، فإذا أصبحوا رأوا أنفسهم — من غير حديث أو اتفاق — قد أجمعوا على المناداة بسقوطه ، ثم الاستعداد للقتال للقضاء عليه والخلاص منه . والعجيب فى إيمان القلوب أن له إشعاعاً ، لا يمكن كتمانه أو إخفاؤه ، أو إقامة السدود فى وجه اتساعه ، وإيمان القلوب شىء غير هذا القول اللسانى ، الذى يتناجى به الناس عند نزول المكروه بهم من ظلم أو فساد ، فقد تكون هذه المناجاة سبيلا إلى تثبيط الهمة ،

وصرف الناس عن العمل ، لأنها قول يراد به إزجاء الفراغ ، أو ادعاء المجاهدة فى سبيل الخير . والحق أنه لاتوجد فى قوى هذا الكون ، قوة تعلو على الإيمان ، أو تغلبه ، ولو كانت قوة منبعثة من البارود والنار ، أو من الكهرباء والبخار أو منطاقة من الطاقة الذرية ، أو ثمرة لقنبلة هيدروجينية ، وليس هذا الكلام شعراً إنما هو حقيقة علمية محسوبة بالأعداد والأرقام ، ومرسومة فى جداول وكشوف ، لعل قوة الإيمان مردها أنها قامت عند المسلمين وعند كل المؤمنين على الاقتناع العقلى بقدر ما قامت على نبض الوجدان وإشراقه ، فليس هو شعوذة ولاسحراً ، وإنما هو علم بما يحرك هذا الكون ويحكمه من قوانين تشمل آفاقه البعيدة بقدر ما تحكم نفس الإنسان ، الذى استخلفه الله وسخر له ما فى السموات والأرض جميعاً ولقد ساق إلينا العلم الحديث فى دنيا السياسة والاقتصاد لا فى دنيا الأديان والعقائد الدليل على أن القنابل الساحقة الماحقة ، قادرة على إزالة المدن وتقويض المصانع والجسور ، وقتل ألوف الناس فى جزء من ثانية ، ولكنها عاجزة أشد العجز عن تقوض الإرادة الإنسانية أو الفت فيها . لقد قتلت وأحرقت وأغرقت وأبادت ، قنبلتا هايروشيما ونجازاكى مائة ألف أو يزيد من اليابانيين ، فسلمت اليابان ، للولايات المتحدة وفى أقل من القليل استطاعت إرادة اليابانيين الحياة وإصرارهم على سبق العدو ، أن يعيدوا بناء ما تهدم ، وتعمير ما تخرب ، ثم على أن يكونوا أنداداً لمن أنزلوا بهم الهزيمة ، ثم أن يسبقوهم فى مجالات تفوقهم وتخصصهم : التجارة والصناعة ، حتى يكون مطلب الدولة الفائزة من الدولة المهزومة أن ترفع من قيمة عملتها عنواناً على سلامة اقتصادها ، ودليل الرفاهية والغنى . وحدث شىء مثل هذا فى ألمانيا التى ضربت قنابل الولايات المتحدة مدنها وأزالت مصايفها . لقد صدق رسول الله إذ قال : «ألا إن فى الإنسان لمضغة إن صلحت صلح ، وإن فسدت فسد ألا وهى القلب» .